مدخل الى خمسين عاماً على حرب السويس: مقدمة شخصية عن أزمة منسية (1 من 3)

في لندن عشت تجربة اكبر حدث غير معالم المنطقة العربية.. وكلمة «السويس» كانت تصفعني في كل مكان

«الغارديان» و«الأوبزرفر» لعبتا دورا كبيرا في فضح التواطؤ مع اسرائيل وكشف كذب ايدن

رياض نجيب الريس *

الصحافة البريطانية: التأميم والعدوان

عبر جريدة محدودة الانتشار في حينه كانت تصدر خارج العاصمة البريطانية، تعرفت قبل نصف قرن على قضيتين أساسيتين تلازمتا زمنياً وشكلتا بالتناوب قضايا ساخنة: تأميم قناة السويس و«العدوان الثلاثي» ـ كما اعتدنا تسميته في العالم العربي ـ الذي تلاه على مصر، ومن جهة ثانية انتفاضة بلاد المجر على النظام الشيوعي فيها وقمع الاتحاد السوفييتي ثورة المجرين بعنف لا مثيل له على مرأى من العالم.

هذه الجريدة هي «المانشستر غارديان» التي كانت تصدر من مانشستر، العاصمة التجارية والصناعية في شمال انكلترا، وتطبع هناك. وكانت تُصنف بأنها جريدة محلية من الأقاليم Provincial على الرغم من أنها كانت توزع في لندن. غير أن تأثيرها السياسي ونفوذها الدولي كانا أهم وأبعد من أرقام توزيعها. ففي منتصف الخمسينيات، كان ثلثا قراء هذه الجريدة من خارج مانشستر، وبلغ توزيعها 200,000 نسخة يومياً، لكن هذه الجريدة غير العادية أدت دوراً سياسياً (أساسياً ان لم يكن خطيراً) خلال أزمة السويس من بدايتها حتى نهايتها بحكم تميز مواقفها المبدئية وتغطيتها المهنية الراقية ومعارضتها لحكومة المحافظين، بالاضافة الى وجود أقنية اتصال خاصة بين وزير الخارجية الامريكي جون فوستر دالاس وبين رئيس تحريرها ا.ب. وادزورث. وكانت ملكية «المانشستر غارديان» تعود الى مؤسسة عائلية لاحدى أسر شمال انكلترا التجارية، قبل أن تتحول الى شركة مساهمة كبرى وتنتقل الى العاصمة في السبعينيات وتسقط اسم مانشستر من عنوانها لتصبح «الغارديان» فقط، احدى أهم كبريات الصحف الليبيرالية البريطانية اليوم. باختصار، لم تكن جريدة «اقليمية محلية» عادية. كانت واحدة من أهم صحف بريطانيا في ذلك الزمان.

كان وادزورث، رئيس التحرير منذ عام 1944، مريضاً بالسرطان وعلى فراش الموت في صيف عام 1956، ابان بدايات أزمة السويس. وكان يُعد محرر الشؤون الخارجية في جريدته، الشاب أليستير هثرينغتون البالغ من العمر 36 عاماً، الذي سبق أن كان ضابطاً في سلاح الدبابات في الحرب العالمية الثانية، لخلافته رئيساً للتحرير. وكان كلاهما وادزورث وهثرينغتون، قد رسما خطاً لـ«الغارديان» معارضاً لسياسة حكومة المحافظين البريطانية تجاه أزمة السويس، مما قاد الجريدة الى دور صدامي خطير في وجه حكومة السير أنطوني ايدن أدى في النهاية الى اسقاطها. ولم يحسب الرجلان حساب الخسائر المادية التي ستصيب الجريدة من جراء هذا الموقف السياسي المعارض. وتوفي وادزورث في 4 تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 1956، في اليوم الذي بدأت فيه القوات البريطانية والفرنسية المشتركة هجومها على مصر من قبرص.

كانت تغطية «الغارديان» لأحداث أزمة السويس عدائية، ومزعجة، الى درجة أن رئيس الوزراء السير أنطوني ايدن حاول منع هيئة الاذاعة البريطانية (بي.بي.سي) من نقل ما تكتبه «الغارديان» عن الأزمة في أقوال الصحف التي تذيعها كل يوم. كما منع مراسل الجريدة الديبلوماسي ريتشارد سكوت من التحدث في الاذاعة. وطرح ايدن مشروع قانون خطير يقضي باستيلاء الحكومة على الـ بي.بي.سي والغاء استقلاليتها القانونية اذا تم غزو مصر. الا أن المشروع لم يتحقق.

غير أن أزمة السويس كانت قد بدأت تتصاعد منذ أواخر تموز (يوليو) من عام 1956، بعدما أعلن الرئيس جمال عبد الناصر تأميم القناة. وصدرت أول افتتاحية لـ«الغارديان» كرد فعل على الأزمة (في زمن كان قراء الصحف فيه يقبلون على قراءة الافتتاحيات قبل الأخبار) تدعو الحكومة الى التعقل، وعدم الاستخفاف بقدرات عبد الناصر، قائلة ان الغرب لا يستطيع استعمال القوة العسكرية وسيلة لضمان تدفق النفط. ووقع رئيس تحرير «الغارديان»، الشاب الجديد، قبل أن يتسلم منصبه رسمياً، مقالاً ضد انذار بريطانيا وفرنسا المشترك بالهجوم على مصر، اذا لم تنسحب قواتها من منطقة القناة، رافضاً التهديدات بالحرب. وبينما كانت الافتتاحية تكتب كانت اسرائيل، الشريك السري في حينه في المشروع الانكلو ـ فرنسي لمنع تأميم قناة السويس، تتقدم الهجوم على مصر. وكان تاريخ الافتتاحية 31 تشرين الأول (أكتوبر) 1956.

خلال أيام من صدور هذه الافتتاحية، تلقى هثرينغتون أول اتصال عبر قنواته الخلفية من مراسله في واشنطن ماكس فريدمان، الذي كانت له صلات خاصة بوزير الخارجية الامريكي جون فوستر دالاس. وصعق رئيس التحرير بمحتوى الرسالة التي جاءته، وفيها أن دالاس قد تبلغ من سفيره في لندن، بأن الحكومة البريطانية تستعد لشن الحرب على مصر. انطلاقاً من هذه المعلومة بدأت «الغارديان» محاولة تغطية الاستعدادات السرية للحرب، وقد أدركت أن الولايات المتحدة لن تؤيد فكرة الهجوم على مصر.

وحاولت «الغارديان» التحايل في تغطيتها تجنباً للوقوع تحت طائلة القوانين البريطانية التي كانت ـ وما زالت الى اليوم ـ تمنع الصحافة البريطانية من نشر ما تعده الحكومة أسراراً عسكرية أو وطنية. وواصل المراسل النشط فريدمان من واشنطن كتابة الرسائل السرية الى رئيس تحريره، وأهمها رسالة في 10 آب (أغسطس) لخص فيها شعور دالاس مفادها: «هناك استعدادات لعمل عسكري ضد مصر من بريطانيا وفرنسا، وانه (أي دالاس) يشعر بأنه من الصعب أخلاقياً الدفاع عن هذا العمل الذي لن يتفهمه العالم، والذي سيؤدي الى تحطيم الأمم المتحدة اذا تم التدخل المسلح... «انها حالة خطرة جداً جداً» حسب قول دالاس.

الأوبزرفر

لم يقف الى صف «الغارديان» في هجومها العنيف على التدخل العسكري ضد مصر سوى «الأوبزرفر». وكانت «الأوبزرفر» صحيفة أسبوعية تصدر صباح كل أحد، تمثل التيارات الليبيرالية في السياسة البريطانية والتوجهات الحرة في الثقافة والفنون، معادية للمحافظين ومتعاطفة مع شعوب المستعمرات. وكانت تمثل الوجه التقدمي لصحافة الأحد مقابل الوجه الآخر المحافظ لـ«الصنداي تايمز». وكان صاحب «الأوبزرفر» ورئيس تحريرها دافيد أستور، ابن أول امرأة (ماري أستور) تدخل مجلس العموم البريطاني في الثلاثينيات، بعدما مُنحت النساء في بريطانيا حق الانتخاب والترشيح. وكانت «الأوبزرفر» مملوكة من شركة عائلية خاصة لآل أستور، قبل أن تباع لعدة جهات ثم تستقر اليوم كجزء من شركة «الغارديان» الجديدة، ووجهها الماثل يوم الأحد.

وانقسمت الصحافة البريطانية الى فريقين واضحين. فريق مع حكومة ايدن في استعمالها القوة لاستعادة القناة من عبد الناصر، وفريق ضد الحكومة وضد اشعال حرب من أجل القناة. على رأس الفريق الأول كانت «التايمز» ومعها «الاكسبرس» و«الميل» و«السكنتس» و«التلغراف» و«ايفنينغ نيوز» و«ايفنينغ ستاندرد» و«الصنداي تايمز» و«الصنداي اكسبرس». أما الفريق الثاني المعادي لحكومة ايدن، فكان الى جانب «الغارديان» و«الأوبزرفر»، مؤلفاً من «الميرور» العمالية، «نيوز كرونيكل» الليبيرالية «مورنينغ ستار» الشيوعية، «بيبول» الشعبوية. لكن «المانشستر غارديان» و«الأوبزرفر» وحدهما استمرتا في معارضة التدخل العسكري بلا هوادة طوال فترة الأزمة. وانضمت اليهما فيما بعد «الايكونوميست»، المجلة الأسبوعية الواسعة النفوذ والواسعة الانتشار اليوم في الولايات المتحدة، في أوضح موقف مباشر ضد الهجوم العسكري البريطاني على مصر، في افتتاحية لها صدرت في 2 تشرين الثاني/ نوفمبر.

وكان موقف الجريدتين «الغارديان» و«الأوبزرفر» المعاديتين لسياسة حكومة ايدن قد عرض الجريدتين لضغوط اقتصادية من أطراف عدة، أدت الى قطع عدد كبير من الاشتراكات ووقف الحملات الاعلانية فيهما، وعزوف عدد من القراء عن شراء الجريدتين. وأصبح الوضع المادي لكل منهما حرجاً، بالرغم من انضمام أعداد من القراء الجدد الذين لم يكونوا من زبائنهما.

كانت المفاجأة في الأوساط الصحافية، هي انقسام صحافة المحافظين، وأهمها مجلة «سبكتاتور» الأسبوعية المحافظة اليمينية، المنافسة لمجلة «نيو ستيتسمان» الأسبوعية العمالية اليسارية، التي كان يترأس تحريرها كينغسلي مارتن، أحد أشهر صحافيي انكلترا في ذلك الوقت. وكان أيان غيلمور، الذي أصبح وزيراً فيما بعد في حكومة مارغريت تاتشر، صاحب ورئيس تحرير «سبكتاتور»، قد سارع في أول عدد صدر من مطبوعته بعد الهجوم على القناة، الى كتابة افتتاحية يدين فيها الاعتداء وينذر رئيس الوزراء أنطوني ايدن بأنه سيواجه اتهامات بالخداع لاعتداء جائر، اذا فشل الهجوم العسكري. وكان موقف غيلمور أول خروج عن الصف.

بعد موقف غيلمور في «سبكتاتور»، أخذ عدد من السياسيين والديبلوماسيين المحافظين من الصف الثاني يستقيلون من الوزارة ومن الخارجية اعتراضاً على مخططات ايدن، بدءاً بوزيري الدولة أنتوني ناتينغ من الخارجية وادوارد بويل من المالية مروراً بسواهما من أعضاء السلك الديبلوماسي. واتضح أن موقف المحافظين لم يكن متماسكاً وخاصة كريستوفر سومز وزير دولة لشؤون الطيران، والأهم صهر السير ونستون تشرشل زعيم المحافظين ورئيس الحكومة السابق، الذي أبدى شكوكه في موقف ايدن ورفض دعوة عمه تشرشل الى تأييد ايدن علناً، علماً بأن تشرشل نفسه كان له اعتراضات على خطة ايدن. وكان راندولف تشرشل، ابن ونستون، المعادي لايدن، من كتاب «سبكتاتور».

وسط هذه الأجواء المرتبكة داخل المحافظين، الحزب الأكثر تشتتاً، تولى هارولد ماكميلان الحكم، فتحول من أحد الصقور الى كبير الحمائم، وبدأ عملية تصفية الامبراطورية البريطانية، التي قال عنها أيان غيلمور: «ان ثورة العراق في تموز (يوليو) 1958 واغتيال الأسرة المالكة العراقية في بغداد كانا المؤشر الأكيد على انسحاب بريطانيا النهائي من الامبراطورية. بعدها، وبسبب السويس، جرت عملية التسلم والتسليم بين بريطانيا والولايات المتحدة، لتتربع واشنطن على عرش امبراطورية جديدة ورثتها، لم تعد لندن قادرة على حملها».

وظل أيان غيلمور، طوال حياته الصحافية والسياسية، من المحافظين المعتدلين المحسوبين من أصدقاء الشرق الأوسط والمتفهمين لظروفه.

التايمز وايدن والازمة

مقابل «الغارديان» كانت «التايمز» التي أدت، بطريقتها الخاصة، دوراً أساسياً في أزمة السويس. فكان ايدن يجتمع باستمرار مع رئيس تحريرها السير وليم هايلي ويعطيه من المعلومات والأسرار ما لا يعرفه معظم وزرائه. وكان هايلي وجريدته يؤيدان في بداية الأزمة ايدن وسياسته في أزمة السويس، لكنه سرعان ما ابتعد عن ايدن، عندما لم يعد رئيس الحكومة البريطانية يتقبل أي موقف حيادي لا يدعم سياسته مباشرة. وتوقفت اجتماعات الرجلين. وابتعد هايلي عن ايدن، ولم تعد «التايمز» تعبر أو تدافع عن سياسة «داونينغ ستريت» ومواقفه، وعم الفتور بين الجهتين حتى سقوط ايدن، وكان هذا الفتور من التقاليد «الجنتلمان» بين الصحافة والسياسيين في تلك الأيام، من غير أن تنتقل العلاقة من حالة التأييد الى حالة العداء السافر.

وكانت افتتاحيات دافيد أستور في «الأوبزرفر» الأعنف والأقوى ضد الانذار البريطاني ـ الفرنسي المشترك لمصر، وضد العمل العسكري، حتى أصبحت مقالاته توزع في التظاهرات التي كانت تنظم في حينه ضد العدوان. في ذلك الوقت، كانت صفحات «الغارديان» و«التايمز» مسرحاً لنقاش مستفيض حول قانونية الموقف البريطاني وحججه في تأميم القناة، وحول شرعية التهديد العسكري بالتدخل. ولم يكن الرأي عام البريطاني قد شهد انقساماً بهذا الشكل منذ أيام أزمة ميونيخ في عام 1938 (التي أدت الى الحرب العالمية الثانية)، ولم يكتف المؤيدون لحكومة ايدن والتدخل البريطاني بالضغوط الاقتصادية على «الأوبزرفر» و«الغارديان»، بل أخذوا يقاطعون مراسلي الجريدتين في الاجتماعات والندوات التي كانوا يعقدونها لمنعوا تغطيتهما، ويتهمونهما «بالخيانة» لأنهما لا تؤيدان «أولادنا بالكاكي» ـ أي الجيش البريطاني.

وتصاعد العداء للجريدتين وازداد نفور القراء المحافظين منهما، واتُهمت «الغارديان» علناً بالخيانة و«الأوبزرفر» بالتجديف. وعلى الرغم من المقاطعة الاعلانية ارتفع قليلاً توزيع الجريدتين. لكن الضرر كان على المدى البعيد قد وقع.

هنا حدثت ثلاثة أمور صحافية أدت دوراً مصيرياً في أزمة السويس:

1 ـ ازاء تطور أحداث السويس يوماً بعد يوم، استعانت «الأوبزرفر» بدينغل فوت، المحامي والقانوني الضليع والنائب السابق عن حزب الأحرار في مجلس العموم (وشقيق مايكل فوت، زعيم حزب العمال في سنوات لاحقة والكاتب في صحيفة «تريبيون» اليسارية حينها، وأيضاً شقيق هيوفوت حاكم قبرص ومندوب بريطانيا باسم اللورد كارادون في الأمم المتحدة فيما بعد). وكانت افتتاحية دينغل فوت من أعنف ما كتب في ادانة احتيال سياسة حكومة ايدن وعدم شرعيتها وتواطؤها. وهاج نواب حزب المحافظين في مجلس العموم وماجوا، وأدانوا كاتبها واتهموا الجريدة وصاحبها بالخيانة. ودخلت هذه الافتتاحية، التي كانت سبباً في تقويض حكومة ايدن فيما بعد، تاريخ حكاية السويس.

2 ـ كان لـ«الغارديان» مراسل في الشرق الأوسط اسمه جيمس موريس(**) (اشتهر كثيراً فيما بعد) «الغارديان» في الشرق الأوسط، وروبرت ستيفنس المحرر في «الأوبزرفر» الذي كتب فيما بعد كتاباً عن عبد الناصر، لعله الأهم في رأيي حتى الآن عن الزعيم المصري. ودعاني ستيفنس مرة الى حضور اجتماع التحرير ظهر السبت الذي كان يعقده رئيس التحرير دافيد استور لمحرري «الأوبزرفر».

وكان الفضاء الشخصي والسياسي في لندن واسعاً في تلك الأيام، بين المجموعة العربية الصغيرة، ومعظمهم من الطلبة، وبين الناشطين الانكليز من السياسيين المعارضين لتوجهات حكومة ايدن والمجموعة الصحافية من الكتاب والمراسلين الصحافيين التي فتحت لنا مكاتبها لنتبادل الرأي فيها. وكان هناك راندولف تشرشل، ابن السير ونستون تشرشل رئيس الوزراء البريطاني السابق، الكاتب في مجلة «سبكتاتور» المحافظة، الذي كان يكره ايدن أكثر مما كان يكره عبد الناصر. وكان الحديث معه في السياسة متعة وهو يعب الشراب عباً. وكان هناك الكاتب الايرلندي أرسكين تشايلدز الذي كان يكتب في الصحف والمجلات، وأول من تصدى للدفاع عن عبد الناصر والقضايا العربية خلال أزمة السويس وبعدها.

هناك كُثر من الصحافيين البريطانيين الذين تقاطعت فيما بعد الطرق بيني وبينهم في حياتي الصحافية، انما غيبتهم الذاكرة اليوم. وما هؤلاء الا حفنة من الذين عرفتهم قبل نصف قرن، وكانوا مضيئين في ثقافتي المهنية. بالنسبة لي، كان لهؤلاء الأشخاص فضل كبير في الحفاظ في ذاكرتي على تجربة حرب السويس، كمراقب من المنظور البريطاني. ولعل أغلب مَنْ ذكرت قد رحلوا اليوم عن هذه الدنيا، انما أحفظ لهم الكثير من الامتنان والود.

تلك الأيام كانت أيام الصحافة والجرائد والراديو. لم يكن التلفزيون قد وصل بلادنا بعد، انما بالكاد انتشر وبشكل محدود، في بلاد الانكليز. كانت الصحف الصادرة في انكلترا تلك الأيام هي مصدر الأخبار الوحيد لي أنا القادم الى عاصمة الضباب، بقدر ما كانت مصدر الهامي أيضاً. وكانت كلمة «السويس» تصفعني في عناوين كل جريدة انكليزية يقع نظري عليها، حتى ظننت أنها تعني بالانكليزية غير ما تعنيه بالعربية. كان هذا قبل أن تصبح هذه الكلمة الجغرافية مصطلحاً سياسياً.

وما هذه المحاولة لاسترجاع قصة حرب السويس التي تعتمد في الدرجة الأولى على جرائد تلك الفترة، الا نوع من الحنين الى الذكريات الشخصية التي رافقتني في تجوالي في تجمعات وتظاهرات تلك الأيام وتطوافي في أروقة الصحف ومكاتبها في «فليت ستريت» شارع الصحافة آنذاك، حيث كانت مباني الصحف ومطابعها. وحكاية أزمة السويس هي حكاية صحافة ذلك الزمان وصحافييه. أما المصادر «الرسمية» لتلك الفترة التاريخية فكثيرة جداً، اذ صدر خلال نصف قرن باللغة الانكليزية وحدها، مئات الكتب، ناهيك باللغات الأخرى. وقد اعتمدت للدقة التاريخية آخر كتاب صدر عن السويس في آب (اغسطس) 2006(**)، ومجموعات الصحف البريطانية في تلك الفترة، الموجودة في المكتبة البريطانية عامة. فقصة السويس هي قصة الصحافة.

العلم المصري يرتفع فوق الشركة الانغلو ـ فرنسية التي كانت تدير قناة السويس

بعث من قبرص رسالة نشرتها الجريدة في صدر صفحتها الأولى في 20 تشرين الثاني (نوفمبر) يؤكد فيها أن فرنسا، والطيارين الفرنسيين بالذات، أدت دوراً أساسياً في التواطؤ مع اسرائيل في الهجوم على مصر. وروى موريس على لسان الطيارين الفرنسيين الذين التقاهم في مطار القاعدة العسكرية البريطانية في قبرص، كيف كانوا يهاجمون المصريين في سيناء وهم يطيرون فوق الأراضي الاسرائيلية ويرمون المؤن والذخائر للاسرائيليين فوق سيناء. ويقول موريس في رسالته لـ«الغارديان» ان الطيارين الفرنسيين هم الذين كانوا يقصفون بالنابالم، وبدقة متناهية، المركبات والآليات المصرية المحملة بالعتاد والجنود، والتي رآها تحترق في الصحراء. وعزا موريس انتصار اسرائيل في حرب سيناء الى دور الطيران الفرنسي.

لكن سرعان ما نفى وزير الدفاع الاسرائيلي الجنرال موشي ديان ما ذكره موريس، كما نفت وزارتا الدفاع والخارجية لكل من فرنسا واسرائيل هذه المعلومات. وكانت «الغارديان» أول من أشار علناً وبوضوح الى التواطؤ البريطاني ـ الفرنسي مع اسرائيل في الهجوم على مصر. وقد نفاه ايدن ـ كاذباً ـ أمام مجلس العموم في 20 كانون الأول/ديسمبر بقوله: «ليس هناك معرفة سابقة بأن اسرائيل ستهاجم مصر».

3 ـ الأمر الثالث، والذي جاء نتيجة للفتور بين «التايمز» وايدن لوقوفها على الحياد، أنها نشرت خبراً هز صدقية ايدن، مفاده أن رئيس الحكومة البريطاني حاول اقناع كل من الحكومتين الفرنسية والاسرائيلية باتلاف نسخ الاتفاق المكتوب معها والموقع في «سيفر» بباريس، وينص على تواطؤ الثلاثة في العدوان على مصر، وكيف رفضت كل من باريس وتل أبيب طلب لندن.

يروي أحد مؤرخي الصحافة البريطانية، أن لورنس سكوت، مدير ادارة «المانشستر غارديان» دخل على هثرينغتون، رئيس التحرير، حاملاً أخباراً سيئة عن هبوط التوزيع وغياب الاعلان نتيجة لموقف الجريدة السياسي. وبعدما أعطى مدير الادارة الكثير من الأرقام عن تدهور الأوضاع الاقتصادية في الجريدة، التفت الى رئيس التحرير وقال له: أتمنى أن لا يؤثر هذا كله فيك، فتضطر الى تغيير سياسة الجريدة. رأيك يجب أن يبقى حراً لتبقى الجريدة مؤثرة وحرة، مهما كان الثمن. القراء يعودون والاعلان يعود. لكن الحرية ستفقدها الى الأبد اذا فرطت فيها!

غداً:
أسرار التواطؤ بين بريطانيا وفرنسا واسرائيل

الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر يعلن تاميم قناة السويس

هوامش

Suez 1956 -The First Story of the (**) First Oil War - by Barry Turner - Hodder and Stoughton- London 2006.

(***) جيمس موريس صحافي وكاتب انكليزي، كان مراسلاً لعدة صحف بريطانية، منها «الغارديان» و«التايمز» في الشرق الأوسط، خلال الخمسينيات والستينيات، وأمضى سنوات عدة في معظم البلدان العربية. له عدة مؤلفات أهمها كتاب «سوق سلوقيا» الصادر في مطلع الستينيات عن العالم العربي، وثلاثية «وداعاً للأبواق» عن سقوط الأمبراطورية البريطانية. تحول اثر عملية جراحية الى امرأة في السبعينيات وغير اسمه من جيمس الى جان. وكان قبل ذلك متزوجاً وله أولاد. وألف عدداً من كتب الرحلات والتاريخ

* صحافي وكاتب وناشر عربي.